

الباب الرابع

خروج المرأة للعمل

المرأة المسلمة - الجزء الأول

obeikandi.com

الفصل الأول

المنهج الإسلامى فى خروج المرأة للعمل

أولاً مهمة المرأة تختلف عن مهمة الرجل :

إن من حكمة الله تعالى وقدرته أن خَلَقَ فى الكون أجناساً مختلفة ، وجعل كل جنس ينقسم إلى نوعين ؛ ليؤدى كل نوع وظيفة مستقلة عن الأخرى . فالإنسان جنس ينقسم إلى نوعين : الأنثى والذكر ، وكل نوع ينشأ من أفراد متساوين ، لا اختلاف فى تكوينهم الحقيقى .

والجنس لم ينقسم إلى نوعين إلا لأداء مهمتين مختلفتين ، مما يدل على أن كل نوع له خصوصية فى ذاته - الجنس يجمع النوعين ، ولهما معه خصوصية فى ذاته ، فعلى سبيل المثال : الزمن جنس ، وهو ظرف لحدوث الأشياء ، وينقسم إلى نوعين : الليل والنهار ، ولكل واحد منهما مهمة يؤديها لا يستطيع أن يؤديها النوع الآخر ، وهما ليسا متعارضين أو متناقضين ؛ لأن هذا نور وذلك ظلام ، وإنما للنهار مهمة وللليل مهمة أخرى . وحين يعرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية يعرضها عرضاً واضحاً ، معللاً فيقول تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾^(١)

فَعِلَّةُ وجود الليل هى السكن والهدوء والراحة والاستقرار ، وعلة وجود النهار هى

(١) سورة يونس - الآية ٦٧ .

الكدح والعمل ، فلا يصلح الزمن كنهار دائم ، ولا يصلح الزمن كليل دائم ، فيقول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾^(١)

إذا فالحق من رحمته تعالى أن جعل الزمن - الذى هو كجنس - ظرفاً لحدوث الأشياء فيه ينقسم إلى نوعين ، كل نوع يؤدي مهمته .

فلو أردنا أن نشبه الليل بالنهار أو النهار بالليل فإننا نكون قد خرجنا بالنوعين عن المهمة الأصلية لهما . والحق سبحانه وتعالى حينما عرض قضية الليل وقضية النهار - وهى قضية كونية لا يختلف فيها أحد ، ولا يستطيع أحد أن يعارض فيها ؛ لأننا جميعاً نجعل الليل للسكن والراحة ، ونجعل النهار للكدح - عرضها - أنه وتعالى ليقدمها إيناساً للقضية التى يمكن أن نختلف فيها ، وهى قضية الرجل والمرأة .

فقال تعالى :

وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى^(٢)

فكان لليل مهمة وللنهار مهمة ، وكأنه - تبعاً لذلك - للرجل مهمة وللمرأة مهمة : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا

(١) سورة القصص - الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

(٢) سورة الليل - الآيات ١ - ٤ .

اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴿١﴾

فلا يتمنى الرجل أن يكون امرأة ، ولا تتمنى المرأة أن تكون رجلاً ، ولذلك يقول
لحديث الشريف :

[لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
بِالرِّجَالِ].

لماذا؟

لأنها خرجت عن النوعية المقصودة ، ولو أرادها الله رجلاً لخلقها رجلاً ، ولو أرادها
أنثى لخلقه أنثى ، فلكل نوع مهمة ووضع . وكل من يحاول أن يُخرج المرأة عن مهمتها
أو أن يخرج الرجل عن مهمته فقد وضع الأمور في غير نصابها .

كذلك كل أزواج الحياة ، ومن هنا فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ^(٢)

وقال :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ ^(٣)

ويقول تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقَارَ بَكْمِ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ^(٤)

وعلة وجود الزوجية هي التكاثر ، قال تعالى :

(١) سورة النساء - من الآية ٣٢ .

(٢) سورة الذاريات - من الآية ٤٩ .

(٣) سورة يس - من الآية ٣٦ .

(٤) سورة النساء - من الآية الأولى ، ومعنى خلق منها زوجها ، أى خلق من جنسها .

﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ
وَحَفَدَةً﴾ (١)

قال ابن كثير :

« يذكر الله تعالى نعمه على عبده بأنه جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما جعل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته أن خَلَقَ من بنى آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر الله تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة » (٢).

لذلك يجب أن نفهم أن لكل نوع من الجنس مهمة يؤديها ، هذه المهمة التي يؤديها يجب أن يقف عندها ، فإذا ما وقف عندها أمكن لكل نوع أن يؤدي مهمته بدون تعارض ، بل بتساند وتعاون مع مهمة النوع الآخر .

والذى يفسد الأمر أن نوعاً يريد أن يطغى على حقوق نوع آخر ، أو على واجبات نوع آخر ، ومن هنا يحدث الفساد فى نظام الكون . فلكل من الرجل والمرأة مهمة خاصة ، وليس معنى أن لكل منهما مهمة أنهما متعارضان ، بل متكاملان ، وكما يقول الشاعر العربى :

هل السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَكْفِي مَكَانَهَا أَمْ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَهْدِي كَمَا يَهْدِي

ومن الخطأ كل الخطأ أن يراد من المرأة - أو يراد للمرأة - أن تأخذ موقفاً من المواقف لم تُهَيِّأَ ولم تُخْلَقْ له أصلاً ، فيجب أن تحيا المرأة فى نطاق طبيعة الأنوثة التى اختيرت لها ، ويجب أن يحيا الرجل فى نطاق طبيعة الرجولة التى اختيرت له ، فلا يجوز للمرأة أن تعبث بما فُطِرَتْ عليه ، ولا يجوز للرجل أن يعبث بما فُطِرَ عليه ، وقد قال رسول الله ﷺ : [لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ] (٣) .

(١) سورة النحل - من الآية ٧٢ .

(٢) ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

(٣) رواه البخارى ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى عن ابن عباس .

إن الإنسان هو أعظم سنن الطبيعة على الإطلاق ، فإذا استهان بنظام فطرته فمعنى ذلك أن يحيا في غير ما ينبغي للكون عامة ولنفسه خاصة من تقدير وتكريم ، والناس بخير ما استقاموا على فطرتهم .

وقد أقسم الله تعالى بها خلق من ذكر وأنثى فقال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾^(١) وهو تعالى أقدس وأحكم من أن يريد بقسمه مجرد ظاهر الذكورة والأنوثة ، وإنما يريد التنبيه إلى شأنه تعالى في الحكمة ونظام الخلق ، لذلك فإن قَسَمَهُ تعالى بها خَلَقَ الذكر والأنثى يتضمن تقريرَ نواميس الذكورة والأنوثة ، وما تؤدي من وظائف وغايات روحية وجسمية ؛ لذلك فإن بقاء كل منهما على نواميسه هو المنطق الذي تقتضيه فطرته ، ويكون كل منهما على أتم قدرته وصلاحيته لما خُلِقَ له . فالمرأة صالحة للحمل والولادة ، والإرضاع والحضانة لتحقيق ثمار الزوجية والأمومة وسائر عمل الأسرة والبيت . والرجل صالح لأعمال التكسب في الخارج ونحوها .

تلك سُنَّةُ الله ﴿ وَلَنَجْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾^(٢)

﴿ وَلَنَجْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾^(٣)

إذن فليس من نواميس الذكورة أن تعمل عمل المرأة من حمل وولادة وإرضاع . . . إلخ . وليس من نواميس الأنوثة أن تؤدي مهمة الرجل من أعمال التكسب في الخارج وغيره ، ويعنى ذلك أن الإسلام يعد صفة الأنوثة من صفات العجز عن التكسب في الخارج . فقانونا الزوجية والأمومة قانونان روحيان لهما قدرتهما على تحقيق أقدس قيم الحياة ، ولكنهما صفة عجز إذا أريد التكسب .

ولقد وهبت المرأة من الحنان وذكاء العاطفة ورهافة الحس ما هو ضرورى لتحقيق ظروف العمل لقانونى الزوجية والأمومة ، والثدى الذى يلقم الطفل ، والرحم الذى يجن الجنين فى قراره المكين ، يعملان لصميم الحياة ، ولكنهما فى ميدان التكسب

(١) سورة الليل : الآية الثالثة .

(٢) سورة فاطر - من الآية ٤٣ .

(٣) سورة الأحزاب - من الآية ٦٢ . وسورة الفتح - من الآية ٢٣ .

سليمان ، والسلبية عجز . فإن الطبيعة في توزيع المواهب والمزايا على الكائنات كافة ترمي الاختصاص ولا تمنح منها إلا القدر الذي يتحقق به المراد . وحينئذ تكون الذكورة صفة من صفات العجز إذا نظرنا إلى جدواها في عمل الأنوثة ، والأنوثة صفة من صفات العجز إذا نظرنا إلى جدواها في ميدان التكسب في الخارج .

ثانياً : المهمات الأساسية للمرأة :

نصح الله آدم وزوجته وحذرهما من الشيطان ، قال عز وجل :

﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(١)

والعداوة هنا مسبقة ، لأنه امتنع عن السجود .

أى : إياكما أن يغويكما ويدليكما بغرور ، فيكون « أن يخرجكما » من جهة الامتثال عند الله . وفي قوله تعالى :

﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾

الخطاب لآدم وحواء معاً في الخروج من الجنة ، فكان الأصول أسلوبياً أن يقول القرآن الكريم «فتشقى» ، لكن القرآن الكريم عبر التعبير الذي يعطى كل واحد منهما مهمته ، فقال : «فتشقى» فجعل الله الترتيب في الشقاء لآدم فقط .

فكان آدم مخلوق للكفاح والجهاد في الحياة ومقابلة صعابها .

وهذه هي المهمة الأساسية للرجل ، وهذا دليل واضح وقاطع في أن الخروج للعمل والكد والشقاء والمعاناة لا يكون إلا للرجل . أما المهمة الأساسية للمرأة فيوضحها قوله تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)

(١) سورة طه - من الآية ١١٧ .

(٢) سورة الروم - الآية ٢١ .

السكن :

فالمهمة الأولى للمرأة هى السكن ، فالحق حينما قال : ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ فقد جعل الحق المهمة الأولى الأساسية للمرأة أن يسكن إليها الرجل ، وكأن المرأة مخلوقة لتكون سَكَنًا للرجل يسكن إليها فى ساعات الشدة ويثبثها همومه وآلامه فتخفف عنه وتهون عليه بها فُطرت عليه من رحمة وعطف ؛ لأنها مصدر الحنان ، ومصدر العطف ، تمسح بيدها كل متاعب الرجل فيزول أى اضطراب فطرى فى القلب والعقل ، فترتاح النفس ، وتطمئن السريرة ، فيستأنف الرجل الحياة بعد ذلك بشىء من النشاط والهدوء .

الرجل يعمل فى الخارج وهى تعمل بالبيت لتعده للزوج ، فيأتى ويجده بيتًا ساكنًا ، بيتًا مستقرًا ، بيتًا كل أموره مرتبة ، وكل أموره منظمة .

وقوله تعالى : ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره فى قوله : «إليها» يعنى : أن السكن هو السكن القلبى الروحى ، وليس السكن الحسى ، يقال : سكن إليه للسكون القلبى ، وسكن عنده للسكون الجسدى ؛ لأن كلمة «عند» جاءت لظرف المكان ، وكلمة «إلى» جاءت للغاية ، وهى القلوب .

« المودة والرحمة » :

وبعد ذلك تجيء المهمة الثانية للمرأة ، وهى : «المودة والرحمة» ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فالزوجة تعوض الزوج عن المتاعب التى يلقاها بمودتها ورحمتها ، وبعطفها ، وبرقتها ، وبسهرها على راحته وهذا الوضع يحقق للزوجين جَوْاءً مشبعًا بروح المودة والمحبة والرحمة ، ويجعل الحياة سعيدة محبوبة ، ويعمق شعور الشوق واللذة والحب الذى يجده كل منهما باتصالهما ، والملابسة بإفضاء أحدهما إلى الآخر :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ^(١)

لذلك فإن ثمر قانون الزوجية الحقيقى ليس فقط مجرد الاستعداد للحمل والجنس ، ولكنه السكن واللباس والمودة والرحمة والعطاء من المرأة لزوجها .

(١) سورة البقرة - من الآية ١٨٧

« البنين والحفدة » :

بعد ذلك تجيء المهمة الثالثة ، وهى أن تكون وعاءً للتكاثر وتأتى بالبنين والحفدة ، قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ۖ ﴾ ^(١)

كما قدر القرآن الكريم أن الغاية من المباشرة الجنسية ليست تحصيل الشهوة ، بل إنجاب النسل ، وذلك يتضح من قوله تعالى :

﴿ فَأَلْزَمَ بَشْرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ ﴾ ^(٢)

أى ابتغوا ما كتب الله لكم من النسل على ما قرره الطبرى والقرطبى والبيضاوى وغيرهم فى تفسير هذه الآية الكريمة .

إن الرجل والمرأة خلق من خَلَقَ الله تعالى ، وهو سبحانه العادل الحكيم لا يريد أن يظلم أحداً من خلقه ، فَهَيَّأَ كُلَّ مِنْهُمَا وَأَعَدَّ لَوْظِيفَةَ خَاصَّةٍ ، ومنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة . فجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل ، وهى وظائف ضخمة وخطيرة .

وكان عدلاً أن تمنح المرأة فى تكوينها العضوى والعصبى والعقلى والنفسى ما يعينها على أداء وظيفتها تلك . وزودت المرأة فيما زودت به من الخصائص بالركة والعطف وسرعة الانفعال ، والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة ، وهذه الخصائص غائرة فى التكوين العضوى والعصبى والعقلى والنفسى للمرأة .

وكان عدلاً أن يُنَاطَ بالرجل توفير الحاجات الضرورية ، وتوفير الحماية كذلك للأُنثى ، ولا يُحْمَلُ عليها أن تُحْمَلَ وترضع وتكفل ، ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها فى آن واحد .

(١) سورة النحل - من الآية ٧٢ .

(٢) سورة البقرة - من الآية ١٨٧ .

وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوى والعصبى والعقلى والنفسى ما يعينه على أداء وظائفه هذه . وزود الرجل فيما زود به من الخصائص بالخشونة والصلابة ، وببطء الانفعال والاستجابة ، واستخدام الوعى والتفكير قبل الحركة ؛ لأن وظائف الرجل كلها تحتاج إلى قدر من التروى قبل الإقدام ، وإعمال الفكر ، والبطء في الاستجابة .

وهذه الخصائص الغائرة في تكوين الرجل ، وكذلك الخصائص الغائرة في تكوين المرأة ، لابد معها من توزيع الوظائف والاختصاصات بين الرجل والمرأة بعدالة وتكليف كل منهما الجانب الميسر له ، المعان عليه من الفطرة^(١) .

ثالثاً : اختصاص المرأة بالأمومة :

المرأة تتعامل مع أشرف الأجناس :

إن الرجل يتعامل في حياته - سواء كان صانعاً أو زارعاً أو تاجراً - مع أشياء وأجناس مختلفة هي دون الإنسان . أما المرأة فهي تتعامل مع أرقى الأجناس كلها ، تتعامل مع الإنسان : تتعامل مع الإنسان زوجاً فيسكن إليها ، وترجحه بمودتها ، ورحمتها وعطفها .

وإذا كان نتاج قانون الزوجية هو عطاء المرأة المودة والرحمة والسكن للزوج عطاءً مشتركاً يشعر كل منهما بنتائجه وآثاره ، فإن نتاج قانون الأمومة هو عطاء المرأة لوليدها ، حيث تتعامل المرأة مع الإنسان جنيناً في بطنها ، ثم وليداً تحتضنه ، وترضعه وليداً ، وتعطيه المثل والقيم ، وتخرجه للحياة مزوداً بكل المبادئ والقيم الأخلاقية التى ينبغى أن يتحلى بها .

فقانون الأمومة قانون انفردت به الزوجة دون الزوج ، بتأهيل روحى خاص جعلها المصدر الطبيعى الوحيد للأمومة . يقول الله تعالى :

(١) فى ظلال القرآن ، لسيد قطب

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾^(١)

وظيفتان خاصتان بالمرأة : الحمل والإرضاع ؛ ليكون عطاء الأمومة للبنين والحفدة . ولايعنى هذا أن الأمومة مجرد حمل ورضاعة ، ولكن الأمومة خاصية روحية ، وعطاء كامل ، معنويًا وماديًا ، للبنين والحفدة .

يخرج الأب لعمله ، ويظل الطفل مع أمه إلى أن يكبر ، لسن السادسة تقريباً ، ويوجد له مجال آخر يؤثر فيه ، وهو المدرسة ، وحتى هذه السن نجد أن عقل الطفل يكون فارغاً يحتاج إلى من يملؤه بالمثل وبالقيم الأخلاقية ، ولايستطيع أن يقوم بهذه المهمة غير الأم ، فإذا كانت الأم مشغولة عن ذلك الوليد بأى عمل من الأعمال فتلجأ إلى مربية لطفلها ، نعم قد تكون أمينة ، وقد تكون نظيفة ، إنما لايمكن أبدًا أن يكون لها قلب أم ، تستطيع أى مربية - مهما كانت - أن تسوس الطفل ، ولانعنى سياسته في رضاعه وطعامه ، وشرابه ولباسه ، ونومه ومرضه فحسب ، بل نعنى إلى جانب ذلك سياسة عقله وخلقّه ، فالطفل جهاز حى لا قاط لكل ما يبدو من المربية من تفاهات فكر وخلق وسلوك .

وجاء فى كتاب : « أطفال بلا أسر » : إن سبب تخلف هذا الجيل هو تعامل الأطفال مع مربية واحدة ، وتعامل الطفل مع أطفال فى سنه . لكن حينما يكون الولد فى مجتمع مع أمه وأبيه ، وبين جده وجدته ، وبين أخواته المتفاوتين فى الأعمار ، فإنه يلتقط من كل جيل يعاشره ، وهذا هو السر فى أن القرآن الكريم قال : ﴿يَبْنِي وَحَفْدَةً﴾ فالطفل الذى ينشأ فى مثل هذا الجو يقبل على المثل ، وعلى القيم الأخلاقية الحميدة ، وعلى العبادات ، فيتعلم الوضوء والصلاة ، وتلاوة القرآن ، تقليدًا للكبار ، ويلتقط من سائر أفراد مجتمعه الفضائل والمبادئ والقيم .

يصرخ الطفل ليلاً فنجد الأب يضيق بهذا ، أما الأم فتقوم بهبة حنان ، وبهبة عطف ومودة ، وقد تجد الطفل فى أقدر حالاته فتتنظفه وهى سعيدة راضية .

(١) سورة لقمان - من الآية ١٤ .

لكن الرجل لا يقدر على ذلك ، ولا يقدر على الضجيج ، فهو يريد أن يسكت الوليد لأنه جاء ليهدأ في البيت .

فالمرأة تتعامل مع أشرف الأجناس في الكون كله ، وهو ذلك الإنسان . وذلك الطفل الوليد مطلوب له عطاء قبل أن ينضج ، فمن الذى يمنحه إياه ؟ لابد أن يكون هذا العطاء مقدماً من الأم بالطبع ، فهى الوحيدة التى تمنحه هذا الحب وهذا الحنان ، وتعطيه الأمومة بكل حبها وعطفها وحنانها ؛ لذلك حينما يأتى الإسلام ليقول : إن المرأة خُلِقَتْ لتكون سكناً للزوج ، وحاضنة لأولادها فإن الإسلام يعطيها أشرف مهمة في ذلك الوجود ، هذه المهمة التى يجب أن تأخذها المرأة بشئ من الفخر ، وبشئ من الاعتزاز ، ولا تأخذها بشئ من الضيق^(١).

اختصاص المرأة بالأمومة :

إن الأمومة هى استعداد روحى تنفرد به الأم دون الأب ، فمن البديهيات وجود خلاف بين الرجل والمرأة في التكوين الجسدى ، والكيان الوجدانى ، ووظائف الحياة البيولوجية .

وتبعاً لهذا الاختلاف الحاسم في المهمة والأهداف اختلفت طبيعة الرجل عن طبيعة المرأة ، حتى يستطيع أن يواجه كل منهما مطالبه الأساسية ، وقد زودتها الحياة بكل التيسيرات الممكنة ، ومنحتها التكيف الملائم لكل وظيفة ؛ لذلك فإنه من البديهي أيضاً ألا يقبل عقل ولا منطق ما يُقال من ثروة فارغة عن المساواة الآلية بين الجنسين . إن المساواة في الإنسانية أمر طبيعى ، ومطلب معقول . فالمرأة والرجل هما شقا الإنسانية ، وشقا النفس الواحدة ، أما المساواة في وظائف الحياة وطرائقها فلا يمكن تَقَبُّلُها ، ولا يمكن تنفيذها ؛ لأن ذلك مخالف لطبيعة الأشياء . فهل يمكن أن نجعل الرجل يشارك المرأة في الحَمْل والولادة والإرضاع ؟ ! إن اختصاص المرأة بالحمل والولادة والإرضاع يستتبعه أن تكون مشاعرها وعواطفها وأفكارها مهياً بطريقة خاصة لاستقبال هذا الحادث الضخم ، والتمشى مع مطالبه الدائمة .

(١) محاضرات لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

إن الأمومة بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة ، وأعمال رقيقة ، وصبر على الجهد المتواصل ، ودقة متناهية في الملاحظة ، وفي الأداء ، هو التكيّف النفسى والعصبى والفكرى الذى يقابل التكيف الجسدى للحمل والإرضاع ، فكلاهما متمم للآخر ومتناسق معه .

إن مطالب الطفولة لاحتياج إلى التفكير ، وإنما تحتاج إلى العاطفة الرقيقة اللطيفة ، والانفعال السريع فى الوجدان ، والثورة القوية فى المشاعر ، مما يجعل الجانب العاطفى لا الفكرى هو النبع المستعد دائماً بالفيض . وهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حتى تلبى وظيفتها الأصلية ، وهدفها المرسوم . أما الرجل فهو مكلف صراع الحياة فى الخارج لاستخلاص القوات ، ولحماية ذاته وزوجته وأولاده من العدوان ، وهذه الوظيفة لاحتياج إلى العاطفة ، وإنما تحتاج إلى الفكر ، فالتفكير بطبيعته أقدر على التدبير والتخطيط ، وتقدير الاحتمالات والعواقب ، وتهئية أحسن الأساليب للوصول إلى الهدف المنشود .

إن مزية الإسلام الكبرى أنه نظام واقعى يراعى الفطرة البشرية دائماً ، فهو يسير فى مسألة الرجل والمرأة على طريقته الواقعية المدركة لفطرة البشر ، فالإسلام يسوى بين الرجل والمرأة حيث تكون التسوية هى منطق الفطرة ، ويفرق بينهما حيث تكون التفرقة هى منطق الفطرة الصحيح أيضاً .

لقد قدر الإسلام الفطرة البشرية وحاجات المجتمع معاً حين خص المرأة بوظيفتها الأولى التى خلقت من أجلها ، ووُهبَت العبقرية فيها ، وجعل كفالتها واجباً على الرجل لا يملك التخلّى عنه ؛ ليفرغ بالها من التفكير فى العيش ، وتتجه بكل جهدها وطاقاتها لرعاية أبنائها .

ولا يستطيع أحد فى الدنيا كلها أن يزعم أن المرأة بتكوينها الجسدى والفكرى والوجدانى ليست مهيأة لوظيفة معينة هى الأمومة ، فإذا لم تقم بها فذلك إهدار لطاقاة حيوية مرصودة لغرض معين ، وتحويل عن سبيلها الأصيل .

إن مراكز البحوث التربوية فى الشرق والغرب تعلن أن الطفل يحتاج إلى أم كاملة لا

يشاركه فيها أحد في الستين الأوليين على الأقل ، حتى ولو كان أخاه الشقيق ، أم تسرع في إجابة مطالبه ، وإحاطته بالرعاية والأمن في حضنها وبين ذراعيها ، وبغير ذلك تملأ نفسه العقد والاضطربات النفسية .

لقد أحاط الإسلام وظيفه الأمومة بالرعاية الكاملة ، والاحترام الشامل ، حتى إن أحد الناس ليسأل الرسول ﷺ : « مَنْ أَوْلَى النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَائِي ؟ » فيقول الرسول ﷺ : أُمُّكَ قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ أُمُّكَ قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ أُمُّكَ . قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ أَبُوكَ » (١) .

من الأبحاث الحديثة لعلم النفس عن آثار خروج المرأة للعمل :

إنه مما لا موضع للجدال فيه أن الرسالة الطبيعية والوظيفة الأساسية للمرأة إنما هي الأمومة ، وأن المرأة لا يكتمل نضجها ونموها النفسى والجسدى إلا بالأمومة ، وأنها بحسن قيامها بهذه الرسالة الطبيعية وهذه الوظيفة الأساسية إنما تؤدي دوراً عظيماً في رفع المستوى الحضارى للشعب ، وفي توفير أسباب الاتزان النفسى والسعادة لرجل الغد ، وأنَّ تَغَيُّبَ الأم فترات طويلة من الزمن يُحدث أثراً سيئاً في نفسية الأطفال ، ونقصاً بليغاً في تكوين شخصيتهم ، وفي قدرتهم على تكوين علاقات تعاونية مع الآخرين ، وإضعافاً لروح التعاون وتقوية لنزعة العدوان في نفوسهم ، فالأمومة هي الرسالة الأولى التى يجب على الأم تأديتها لكى تضمن جيلاً يمتاز بالاتزان الانفعالى والنضج العقلى .

وإن الأطفال الذين حُرِّموا من عناية الأم وَبَشُّوا في مؤسسات وجدوا كل ما يلزم من العناية المادية ، ولكنهم حُرِّموا مما هو أهم من العناية المادية ، وهو حب الأم .

لقد أحدث هذا الحرمان نقصاً بليغاً في تكوين شخصية الأطفال ، وفي قدرتهم على تكوين علاقات تعاونية مع الآخرين ، بل أوجدَ فيهم اتجاهات عدوانية نحو المجتمع ، تظهر آثارها في سن المراهقة والشباب .

(١) شبهات حول الإسلام ، محمد قطب (بتصرف) .

إن لعمل المرأة خارج المنزل آثارًا ضارة أحياناً بنفسيتها وشخصيتها ذاتها ، فهي تتعرض للتأزم النفسى نتيجة لعوامل مختلفة . وقد دلت دراسات حديثة أجريت في الولايات المتحدة عن النساء العاملات على أنهن أبعد عن الاتزان الانفعالى من الرجال .

وكذلك من الحقائق الثابتة ذلك الدور الهام الذى تؤديه العاطفة في توجيه نشاطها العقلى واتجاهاتها النفسية ، فإذا كان منطق الرجل يتميز بنزعة العقلية الاستدلالية فإن منطق المرأة في صميمه منطق العاطفة ؛ ولذلك فنحن نجد لها أكثر اهتماماً بالأشخاص منها بالأشياء .

ومما لا سبيل لإنكاره أن ثمة فوارق بين الجنسين (الذكر والأنثى) من حيث الميول المهنية ، وأن من أوجه النشاط ، التى تميل إليها المرأة بطبيعتها بوجه عام المهن الأدبية ، والفنون ، والتدريس والخدمات الاجتماعية ؛ لذلك تجد النساء ينجحن أكثر من الرجال في المؤسسات الاجتماعية التى ترعى المرضى والفقراء ، وتعنى خاصة بحالتهم المعنوية^(١).

رابعاً : هل تستطيع المرأة أن تقوم بالرسالتين معاً ؟:

وهناك تساؤل يدور دائماً : ماذا لو قامت المرأة بمهمتها كزوجة وأم ، وخرجت للعمل لتخفف عن الرجل الشقاء ؟

الواقع أن المرأة بخروجها للعمل لم تخفف عن الرجل شيئاً ، فما زال الرجل يتعب ويشقى ، ثم هى شقيت أيضاً . وإذا تعللت المرأة بمشاركة الزوج في العمل من أجل زيادة الدخل ورفع مستوى الحياة فليس المفروض في الإنسان المسلم الحق الذى له قيم سماوية أن يفرض مستوى الحياة أولاً ، ثم بعد ذلك يحمل الدخول عليها . لا : فالعكس هو الصحيح .

فالمفروض في الإنسان المسلم حقاً أنه على قدر دخله يحدد مستوى حياته ، والذى يتعب الناس ويشقيهم هو أنهم يحددون أولاً مستوى حياتهم حتى إذا لم يكفِ الدخل

(١) سيكولوجية الجنس ، للدكتور يوسف مراد . وعلم النفس الصناعى ، للدكتور أحمد عزت راجع .

بدءوا في عمل أى شىء لزيادة دخلهم ، مما يكون سبباً في زيادة شقائهم وتعبهم ، وهذا قد يؤدى بالبعض إلى البعد عن الطريق الصحيح في سبيل الحصول على ماديّات الحياة بأية وسيلة .

ولن يقولون : إن عمل المرأة يزيد من دخل الأسرة نسألمهم : ماذا يستفيد المجتمع الإسلامى من أن يزيد إنتاجه المادى وهو يعرض إنتاجه البشرى للتلف والبوار .

ولن يقولون : إن العمل يعطى المرأة كياناً اقتصادياً مستقلاً ، فتحصل المرأة على كرامتها ، نسألمهم :

هل انتقص الإسلام كرامة المرأة فى شىء ؟

وهل حرم الإسلام المرأة من الكيان الاقتصادى المستقل ؟

وهل تعتمد كرامة المرأة على استقلالها فى كسب قوتها عن زوجها وأبيها .

ولن يقولون : إن المرأة إذا اقتصرّت على البيت تكون عاطلة نسألمهم :

هل تُعدّ وظائف المرأة فى الحَمْل والولادة والرضاعة وعمل البيت لا شىء ؟

وهل إذا اقتصرّت المرأة على ذلك تعد عاطلة ؟

وهل عندما تنفرغ المرأة للسكن والمودة والرحمة تكون عاطلة غير منتجة ؟ على العكس : إنها تؤدى أعظم مهمة ، وتنتج أجل إنتاج بأعلى مستوى من الكفاءة ، وفى الوقت الذى لا تستطيع أداء عملها خارج البيت بما يستحقه من إتقان وإحسان لوجود العوارض الطبيعية التى تعترض المرأة كالدورة الشهرية ، والحَمْل ، والولادة ، والنفاس ، والتى تقرر كلها عجز المرأة عن عمل التكسب فى الخارج ، هذا بالإضافة إلى ما تنتجه هذه العوارض من آثار الضعف النفسى والعقلى والبدنى ، والتى اكتشفها الطب حديثاً .

كل ذلك يجعل المرأة لا تستطيع أداء العمل بما يستحقه من إتقان وإحسان ، وليس هذا عن إهمال وتكاسل ، ولكن عن ضرورة تفرضها عليها هذه العوامل الطبيعية التى تعترىها ، والنبي ﷺ يقول :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » (١) .

لذلك فإن سُنن الحياة تفرض الكمال ، وقد جهزت كل كائن بعدده وأسبابه ،
والنبي ﷺ يقول أيضاً :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ » (٢) .

لذلك فخروج المرأة لميدان العمل يؤدي حتماً إلى ضعف مستوى الكفاية الإنتاجية ،
وضعف مستوى أداء الأعمال ، بالإضافة إلى تضيق فرص العمل أمام الرجال ، وخلق
مشكلة البطالة .

إن من الأسس الفطرية التي يقوم بها الزواج أن يكون سكناً للرجل ، فهل يمكن أن
يجد الرجل ذلك السكن لدى امرأة قد يحضر فلا يجدها في البيت لأنها في عملها ، أو
يجدها ولكنها مثله مثقلة بتعب الفكر والنفس والجسم ؟!

وليس معنى ذلك أننا نعارض حق المرأة في العمل ، فالمشكلة ليست في مناقشة هذا
الحق تأييداً أو معارضة ، ولكن المشكلة هي مدى تهيئة الظروف الواجب توافرها لقانون
الزوجية والأمومة ، ومدى تعارضها مع الاعتبارات الذهنية والنفسية التي تطرأ على المرأة
بحكم اندماجها في الوظيفة .

إن تقدير الإسلام للأسرة أنها جهاز ذو فاعلية في معنى الحياة ، فإذا ما تأثر قانون
الزوجية والأمومة بما تكون فيه المرأة من ظروف غير مواتية فلا يكون من الزواج غير
صورته الحسية ، ولا يكون للأولاد من مصدر للأمومة الكاملة إلا ما تضطر إليه
الظروف (١) .

يقولون : إن المرأة يمكنها التوفيق بين واجبها في البيت وعملها في الخارج ، فهذا
القول هو أولاً اعتراف بأن المرأة عاملة في البيت غير عاطلة ، وأنه لاصحة لما يُقال من
فراغ وقتها وعقلها . والحقيقة أنه لا يمكن التوفيق بين العاملين : فإن السكن مثلاً -

(١) رواه البخارى ، والجماعة .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

(٣) الإسلام والمرأة المعاصرة ، للبهى الخولى (بتصرف) .

وما يثمر من مودة ورحمة - ليس من الأمور الحسية التى يمكن توزيع الوقت عليها . فلا يقال للزوجة مثلاً : دَعَى السَّكَنَ إلى ما بعد الظهر ، ثم زاوليه ماشئت ، لا يقال للطفل أن يكف عن التقاط تصرفات الخدم على اختلاف صورها فى الإهمال وتفاهة الفكر وضعف التقدير لغايات الحياة وقيمها ، لا يقال له أن يكف عن ذلك إلى أن تعود أمه من الخارج من عملها . فإذا انتفى التوفيق ورضينا بما يكون من تقصير ونقص فتكون النتيجة خسارة فى المقومات المعنوية والثمر الروحى للأسرة ، لا يمكن أن يعوضه أى بديل مادية أو اقتصادية .

إن البيت هو المكان الطبيعى لتحقيق المقاصد العليا الروحية والاجتماعية التى أرادها الله بخلق الأنس . وعليه فلا يجوز لها الخروج من بيتها إلا لمصلحة ولضرورة . ولنتأمل هذا الحديث الشريف الذى رواه أنس قال :

« جَاءَتِ النِّسَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ، ﷺ فَقُلْنَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بِالْفَضْلِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فهل لنا من عمل نُدرك به فَضْلَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فقال ﷺ : « مَنْ قَعَدَتْ مِنْكُمْ فِي بَيْتِهَا فَإِنَّهَا تُدْرِكُ عَمَلَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

والحديث الشريف الذى رواه البخارى رضى الله عنه قال :

بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أُعْرَابِيٌّ فَقَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟

قال عليه الصلاة والسلام : « إِذَا ضُبِعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

قال الأعرابي : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟

قال الرسول : « إِذَا وُسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

وتفسير رسول الله ﷺ للأمانة يتضمن معانى كثيرة ، فالمرأة تتخلى عن طبيعتها لتلبس طبيعة الرجل ، أو الرجل يتخلى عن طبيعته ليلبس طبيعة المرأة ، وهذا توسيدٌ للأمر إلى غير أهله ، وهذا منافع للأمانة الفردية والأمانة الاجتماعية ، وقد ربط الرسول ﷺ برباط مُحْكَم بين الأمانة والإيمان - فقال ﷺ : « لَا إِيْمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ » ^(١) .

(١) رواه أحمد ، وابن حبان ، والطبرانى فى الأوسط .

خامساً : الإسلام لا يمنع عمل المرأة .. ولكن :

إن العمل في ذاته مشروع غير مُحَرَّم على المرأة مادام في غير معصية ، بشرط ألاَّ يستغرق وقتها وفكرها ووجدانها ، وبما لا يُخرجها عن خصائصها ومقتضيات مهمتها الفطرية ، وبما لا يُخرجها عن مهمتها كزوجة ، وعن واجبها كأم تحضن أطفالها ، ولا يبعدها عن هذا الميدان ، فيصح لها أن تعمل - ولكن في حدود الضرورة وفي إطارها .

وكانت النساء في صدر الإسلام يعملن حيث تقتضى الضرورة منهن العمل ، فالمسألة ليست تقرير الحق في ذاته ، فالحق مقرر أصلاً ، بل هو واجب عليها ، وتكليف لها ، وإنما المسألة هي : هل تقتصر المرأة على عملها ووظيفتها الأساسية داخل البيت بحكم طبيعة تكوينها ، أو تخرج للعمل خارج البيت ؟

لقد تكلمنا عن حقوق المرأة في مختلف الاتجاهات : من حقوق مالية ، وحقوق متعلقة بالأحوال الشخصية ، وحقوق طبيعية . فإذا ذهبنا إلى الطبيعة وجدنا أن المرأة مؤهلة بفطرتها لكثير من الحقوق العامة ، فمن حقها أن تكون زوجة ، وأماً ، وربة بيت ، وليس لكائن ما أن يمنعها هذا الحق ، وعلى المجتمع أن يسره لها ويتخذ كل الضمانات لحمايته . وهذا الحق هو في الوقت نفسه تكليفٌ لها أن تحقق الغرض الذي قدرت وخلقته له ، فهو حق لها من وجه ، وواجب عليها من وجه آخر ، لا يجوز لها أن تتخلى عنه ، ولا يجوز لأى عقل عاقل أن يضيف إلى هذين الوجهين وجهاً ثالثاً ، هو حقها في أن تخرج من بيتها لتشتغل بغير مهمتها في التكسب الدائم والاحتراف الرتيب .

إنَّ الإسلام دين الفطرة ، وهو دين واقعى يضع الأمور في حدودها الطبيعية ، ويقف الموقف الوسط ، فالله عز وجل الذى خلق الإنسان - ذكراً وأنثى - يعلم أن هناك ظروفاً قد تضطر المرأة للخروج للعمل ، فهو يسمح للمرأة أن تخرج للعمل للضرورة ، على أن الضرورة تُقدَّرُ بقدرها . وهذه الضرورة : إما ضرورة تقتضيها حاجة المجتمع من ناحية .. وإما ضرورة تقتضيها حاجة امرأة بعينها من ناحية أخرى .

إن الأصل الأصل في مهمة المرأة أن تقوم برعاية بيتها وزوجها ، وتربية أولادها

خُلِقَتْ وصَحِيًّا لتعد جيلاً طيباً يسعد أمته . ويقول ﷺ مادحاً نساء قريش ، ومُشيداً بمهمتهن الأصلية :

« خَيْرُ نِسَاءٍ ، أَخْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ »^(١)

والمعنى أنها شديدة العطف والحنو على الأولاد ، عطفاً يؤدي إلى العناية بهم ، وتنشئهم على الأخلاق السامية المستمدة من مبادئ الدين الحنيف .

إن الأصل الأصيل في مهمة الرجل هي العمل والكدح ، والشقاء والكفاح ، فالعمل يُطالَب به الزوج ، كما أن النفقة واجبة عليه للزوجة والأولاد ، لقوله تعالى :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(٢)

إن الإسلام أشار إلى أن يكون عمل المرأة بما يتناسب مع طبيعتها وحدودها ، فقد رأينا أن الكثير من النساء المسلمات شاركن في عهد النبي ﷺ في الغزوات في حدود ما تسمح به طبيعتهن ، كتضميد الجرحى ، ووضع الفتائل ، وترقيع الثياب ، وإعداد الأطعمة ، وما شابه ذلك .

إن أعظم عمل للمرأة يكون في رعايتها لزوجها وأولادها ، والخدمة في بيتها ، وتربية أولادها ، لتنشئ جيلاً من الأبناء والبنات شملت الرعاية الكاملة ، وحنان الأمومة الكامل ، وعطف الأبوة الشامل .

ومع ذلك فإن الإسلام لم يفرض على المرأة أن تظل حبيسة البيت لا تخرج منه ، بل أباح لها الخروج للصلاة ، وطلب العلم ، وقضاء الحاجات ، وكل غرض ديني أو دنيوي مشروع ، فقد قال عليه الصلاة والسلام لزوجته سودة :

« قَدْ أَذِنَ اللَّهُ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَوَائِجِكُنَّ »^(٣) .

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأحمد بن حنبل .

(٢) سورة النساء - من الآية ٣٤ .

(٣) رواه البخارى من كتاب النكاح من حديث عائشة .

إن تعليم البنات ، وتطبيب النساء ، والتمريض ، وما إلى غير ذلك من أمور ، ينبغي أن تقوم بها المرأة . إن الطيبة والحكيمة والممرضة تستطيع أن ترعى أسرتها وزوجها وأولادها صحياً ، وتستطيع أن تعالج بنات جنسها .

وإن المعلمة تستطيع أن تربي وتعلم أولادها وبنات جنسها خلقياً وعلمياً ، فهذه إذن وظائف يلزم أن يشتغل بها النساء ، وهي ضرورة تقتضيها حاجة المجتمع .

كما أن هناك ضرورة تقتضيها حاجة امرأة بعينها ، فحاجة المرأة للعمل لعدم وجود عائل لها ، ولا يوجد من الرجال من يقوم بشأنها ، كأب أو أخ ، مما يضطرها للخروج للعمل لتعصم نفسها وأطفالها اليتامى من الضياع ، أو في حالة عدم كفاية ما يعولها به عائلها - حالة تقدر حق المرأة في العمل ؛ لأن ذلك أصون لها من الابتذال في سبيل العيش . وإلا فهاذا تفعل الأرملة الفقيرة ، أو زوجة الفقير ، والمريض ، والعاجز عن العمل ؟! وإن كان هذا يتضمن الدلالة على أمرين :

الأول : تقصير المجتمع أو قصوره عن فهم واجبه في رعاية اليتامى والفقراء والعجزة ومحدودي الدخل .

والثاني : جمود العامل الإنساني نحو المرأة التي تضطرها الطبيعة إلى العمل لتعول أيتامها .

ومع ذلك فحتى لو سلمنا بأن هذه وتلك ضرورة يبيحها الإسلام على هذا الوضع ، فقد وضع الإسلام إطاراً لهذه الضرورة ، والضرورات تُقَدَّرُ بقدرها ، وهذا الإطار وَضَحَهُ لنا القرآن الكريم في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بنات «شعيب» .

سادساً : ما يستنتج من قصة موسى عليه السلام مع بنات شعيب :

قال الله عز وجل :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ^(١) ﴾

(١) سورة القصص - من الآية ٢٣ .

ومعنى تَذُودَان : تمنعان ما ترعيان عن الماء .

إذن لأى شىء خَرَجَتَا مادامَتَا تمنعان ما ترعيان عن السقى ، مع أن هذا مكان ورود الماء ؟

قال موسى : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ؟

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقَى حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾^(١)

أى أن الفتاتين وقفنا بعيداً حتى ينتهى الرجال من سقى ماشيتهم ، وبعد ذلك تَخْلُو البئر ، فهما امرأتان ، وهؤلاء الرعاة رجال ، إذن فالفتاتان خَرَجَتَا لضرورة وعلة كما أن الفتاتين أخذتا الضرورة بقدر .

توضح لنا هذه الآيات البيّنات مدى ما يجب أن تكون عليه المرأة من عفة ، وأن التزامها بالبيت هو الأساس والقاعدة ، وأن خروجها للعمل لا يكون إلا لضرورة ؛ لأن عمل المرأة فى حد ذاته استثناء وليس قاعدة .

وما يتطلبه المجتمع الإسلامى من المرأة هو الإشراف على شئون بيتها وأسرتها ، وإعداد أولادها للحياة خُلُقِيّاً وصحياً واجتماعياً وثقافياً ، وبعد ذلك يبقى خروجها للعمل للضرورة ، والضرورات تقدر بقدرها .

الإطار الذى يُسمح فيه للمرأة بالخروج للعمل :

وتحدد الآية الكريمة الإطار الذى يسمح فيه للمرأة بالخروج للعمل وهو :

أولاً : أن يكون هناك ضرورة وعلة تلجأ المرأة فيها إلى الخروج للعمل . تتمثل هنا فى قوله تعالى : ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعى ومجالدة الرجال .

ثانياً : أن ظروف المرأة التى اضطرتها للخروج للعمل يجب ألا تنسيها أنها امرأة

(١) سورة القصص - من الآية ٢٣ .

وتدخل في زحام الرجال ، ويجب ألا تخرجها عن نوعيتها بحيث تحسب نفسها رجلاً ، بل تأخذ الضرورة بقدرها ما أمكن ، وتؤدى مهمتها ، ﴿ لَا نَسْقَى حَتَّى بُصْدِرَ الرَّعَاءُ ﴾ وذلك حتى لا تحتكا بالرجال عند مزاحمتهم على الماء .

ثالثاً : يجب أن يسيطر على أفراد المجتمع النخوة والفطرة السليمة ، وأن يقفوا موقف الرجولة والشهامة والمروءة بإعانة المرأة التي اضطرتها الظروف للخروج للعمل على أداء مهمتها ، حتى تسرع بالعودة إلى بيتها .

﴿ فسقى لهما ﴾ : وهذا من صفات النفوس النبيلة والفطرة السليمة .

رابعاً : في خروج المرأة للعمل يلزمها الشَّارِعُ أن تكون على هيئة من الوقار والاحتشام ، والالتزام بالحجاب ، فتكون نظرة المجتمع إليها أنها مادامت قد خرجت للضرورة وهى محتشمة فهى امرأة محافظة على كرامتها ، امرأة محافظة على عرضها وشرفها ، وامرأة تستحق من أفراد المجتمع الاحترام والتقدير ؛ لذلك كان خير ما وصف به القرآن الكريم ابنة شعيب هو الحياء ، قال تعالى :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾^(١)

مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال «على استحياء» ، في غير ما تبذل ، ولا تبرج ، ولا تبجح ، ولا إغواء .

خامساً : إن المرأة حين تخرج للعمل مضطرة عليها أن تعمل على إنهاء الضرورة ما أمكنها ، حتى لا تضطر للاستمرار في الخروج ، وبحيث لا تمتد الضرورة ، بل تعمل على إنهاؤها بأسرع ما يمكن . فنجد أنه بمجرد أن وجدت الفتاة الإنسان القوى الأمين طلبت استئجاره للعمل بدلاً منها فقالت :

﴿ يَكُنَّ ابْنَةُ اسْتَعْجِرَةٍ إِنَّا خَيْرٌ مِنْ اسْتَعْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾^(٢)

(١) سورة القصص - من الآية ٢٥ .

(٢) سورة القصص - من الآية ٢٦ .

إنه مطلب الأنوثة المستقيمة السليمة . فإنها وأختها تعانيان من رعى الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذى لا بد منه للمرأة التى تزاوِل أعمال الرجال ، وهى تتأذى وأختها من هذا كله ، وتريد أن تكون امرأة تأوى إلى بيت امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء فى المرعى والمسقى ؛ لذلك تشير على أيتها باستئجار موسى ليكفيها وأختها مئونة العمل والاحتكاك والتبذل .

والمرأة العفيفة الروح ، النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لاستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة . يقول الإمام الألوسى : « إن كلامها هذا كلام حكيم جامع لا يُزاد عليه ؛ لأنه إذا اجتمعت الخصلتان : الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك ، فقد فرغ بالك وتم مرادك » .

وعندما قالت البنت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ يقول المرحوم سيد قطب فى ظلال القرآن فى ذلك :

« إنه لاجابة لما رواه المفسرون عن دلائل قوة موسى ، كرفع الحجر الذى يغطى البئر ، والذى لا يطيق رفعه إلا عشرة ، فالبئر لم تكن مغطاة حيث كان الرعاء يسقون .

وإنما رأت من قوته ما يهابه الرعاة ويرهبهم ، فإنه - برغم أنه رجل غريب ، وفى حالة إعياء من السفر - نحى الرعاة فأفسحوا له الطريق ، وسقى للمرأتين . ولعلها قوة نفسه التى أوقعت فى قلوب الرعاة رهبة أكثر من قوة جسمه ، فإنها يتأثر الناس بقوة الأرواح والقلوب أكثر من تأثرهم بقوة الأجسام والعضلات .

وكذلك لا حاجة لما رواه المفسرون عن دلائل أمانة موسى أنه بعد أن مشى خلفها ورفع الهواء ثوبها عن كعبها قال لها : امشى خلفى فإذا اختلف الطريق فاحذنى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق ، وذلك خوفاً من أن يراها - فهذا دَفْعٌ لريبة لا وجود لها ، فموسى عليه السلام عفيف النظر ، نظيف الحِسِّ ، فالعفة تتضح فى التصرف العادى البسيط بلا تكلف ولا اصطناع . فهذا هو ذا شاب قوى أمين ، رأت من قوته ما يهابه الرعاة فيفسحون له الطريق ، ويسقى لهما . ورأت من أمانته ما يجعله عف

اللسان والنظر حين توجهت لدعوته ، فهو قوى على العمل أمين على العرض ، والأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه .

سادساً : يجب أن يكون إنهاء ضرورة الخروج للعمل بحل إسلامي محض :

يأخذ شعيب برأى ابنته في استئجار موسى للسقاية ، مع حكمة في التصرف ، وروعة في تصور إحساس فتاة تشير على أبيها باستئجار رجل أعجبها أمانته وقوته ؛ لتنهى ضرورة خروجها للعمل بأسرع وقت ممكن . فيحتاط شعيب على ألا يكون موسى أجيراً في البيت كرجل أجنبي مع بنات ، وإنما يجمع الأب بين غايات ثلاث وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه ، وهى : أن يكون زوجاً لإحدى الابنتين ، وفي نفس الوقت محرماً للبت الأخرى ، وأن ينهى الضرورة التى ألجأت الابنتين للخروج إلى العمل ، بأن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثمانى سنين ، فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لايلزم به .

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَنُؤَيِّدَ بِنِسَابِ آبَائِنَا الَّذِي نَمُوتُ بِهِ وَفِي آيَاتِنَا أَنْتَ أَشَدُّ حُجُوجًا ۖ فَإِنْ أَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنَا إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ٢٧ ﴾^(١)

وهكذا فى بساطة وصراحة عرض الأب إحدى ابنتيه على موسى ، عرضها فى غير تخرج ولا التواء ، فهو يعرض نكاحاً لاينجبل منه ، يعرض بناء أسرة وإقامة بيت ، وليس فى هذا ما ينجبل ، ولا ما يدعو إلى التخرج والتردد والإيذاء من بعيد .

وهكذا يمكن أن نستنتج من ذلك السرد القرآنى العظيم لقصة موسى مع بنات شعيب أن الإسلام يرخص للمرأة الخروج من البيت للعمل عند وجود ضرورة مُلْجِئَة إلى ذلك ، وبشرط مراعاة حدود التستر والتزام الحياء ، وعلى أن تقدر الضرورة

(١) سورة القصص - الآية ٢٧ .

بقدرها ، وعلى أن تعمل المرأة على إنهاء تلك الضرورة في أسرع وقت ممكن .

أما أن يكون الأصل في المجتمع أن تخرج المرأة للعمل - كما نرى في دول الغرب والدول الشيوعية - فهو سلوك لا يقره الإسلام ؛ لأنه يخرج بالمرأة عن وظيفتها الأولى ، وينشئ من المفسد النفسية والاجتماعية والخلقية أكثر مما ينتج من الخير .

لمحات وعظات من هذه القصة :

عندما عادت الفتاتان وقَصَّتَا على أبيهما ما حدث لهما ، طلب أن تذهب إحداهما لدعوته ليكافئه جزاء سقيه لهما . ويعلمنا القرآن الكريم ورسولنا الكريم ﷺ من ذلك مبدأ سامياً من مبادئ الإسلام الحنيف ، وهو مكافأة المعروف بالمعروف ، فيقول تعالى :

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ ^(١)

ويقول الرسول ﷺ :

« مَنْ أَدَّى لَكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فَادْعُوا لَهُ بِالْخَيْرِ » ^(٢) .

ثم كان أعظم شيء وصف به الله عز وجل ابنة شعيب هو «الحياء» وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ يعلمنا ذلك أنه يجب على المرأة المسلمة أن تتصف بخلق الحياء في تصرفاتها ، وفي مشيتها ، وفي كلامها ، حتى لا يطمع فيها مَنْ في قلبه مرض ، فتكون النموذج الطيب للمرأة الطاهرة الفاضلة ، العفيفة النظيفة ، حين تلقى الرجال «على استحياء» في غير ماتبذل ولا تبرج ، ولا تبجح ولا إغواء .

فالحياء من أعظم الصفات التي تتصف بها المرأة المسلمة ، والرجل المسلم أيضاً ، ولنا في رسولنا الكريم الأسوة الحسنة ، فقد كان ﷺ :

[أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا] ^(١) .

(١) سورة الرحمن - الآية ٦٠ .

(٢) رواه البخارى .

وماذا قالت ابنة شعيب وهى تُوجه الدعوة إلى موسى ؟ لقد أنهت إليه دعوة أبيها فى أقصر لفظ وأرجزه وأدله : ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ فَمَعَ الْحَيَاءُ الْإِبَانَةَ والدقة والوضوح .

يقول الإمام ابن كثير : « لقد أسندت الدعوة إلى أبيها ، وعللتها بالجزاء ، حتى لا يفهم موسى أنها راغبة فيه ، ولئلا يوهم كلامها رغبة فى نفس موسى . وفى كلامها من الدلالة على كمال العقل والعفة والحياء ما لا يخفى » .

ومن أجل ما روى عندما التقى موسى بالشيخ ، ما أخرجه ابن عساكر عن أبى حازم قال : « لما دخل موسى على شعيب عليهما السلام ، إذ هو بالعشاء ، فقال له شعيب : كُلْ .

قال موسى : أعوذ بالله تعالى . قال شعيب : ولم ؟ أَلَسْتَ بجائع ؟

قال موسى : بلى ، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سَقَيْتُ لها ، وإنا أهل بيت لانباع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً .

قال شعيب : لا والله ، لكنها عادتى وعادة آبائى ، نَقْرَى الضيف ، ونطعم الطعام . فجلس موسى عليه السلام فأكل .

من الإعجاز القرآنى المبدع :

ومن الإعجاز القرآنى المبدع ملاحظه أئمة الفقه والتفسير من أن البيوت مضافة إلى ضمير النسوة فقال : « بيوتكن » ، و« بيوتهن » .

فجاءت كلمة بيوتكن فى قوله تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾^(١)

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾^(٢)

(١) سورة الأحزاب - من الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأحزاب - من الآية ٣٤ .

وهاتان هما المرتان اللتان وردت فيهما كلمة بيوتكن ، في جميع آيات الله البيئات .

وجاءت كلمة بيوتهن في قوله تعالى :

﴿ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾^(١)

وهذه هي المرة الوحيدة التي وردت فيها كلمة «بيوتهن» في جميع آيات الله البيئات .
هذا مع أن البيوت للأزواج لهن واستنتج المفسرون من ذلك :
أنها ليست إضافة «تمليك» بل إضافة إسكان تقررت لاستمرار لزوم المرأة البيت إلا
لحاجة - حيث أضيف إليها ، والإسكان معناه إلزام بالإقامة^(٢) .

من الفتاوى :

وجاء في كتاب مجموعة فتاوى للشيخ الطاهر الزاوى قوله :
« للزوج أن يمنع زوجته من الخروج للعمل وإلزامها بالتفرغ لشئونه وشئون بيته
وأولاده ، ولو شرطت عليه العمل أثناء العقد . . . قال :

قال التَّسَوُّلِي : « إذا اشترطت عليه الماشطة في العقد ألا يمنعها من الخروج لصنعتها
فلا يلزمه الوفاء به » وذكر الماشطة مجرد مثال ، ولا فرق بين الماشطة وغيرها من جميع
ربات الأعمال ، سواء كانت موظفة في الحكومة أو في شركة ، أو في أى عمل آخر .

من أحكام المحاكم :

طلبت زوجة من محكمة القاهرة للأحوال الشخصية الحكم لها بالطلاق ؛ لأن زوجها
منعها من العمل ، فرفضت المحكمة هذا الطلب ، وجاء في حيثيات الحكم :

« إن الأصل في عمل الزوجة هو معاونته الزوج على القيام بأعباء المعيشة ، ومادام
الزوج يرى أنه قادر وحده على ذلك فيصبح من حقه إجبارها على عدم الخروج للعمل
والتفرغ لتربية الأولاد ، وهي مهمة أسمى من الخروج للعمل »^(٣) .

(١) سورة الطلاق - من الآية الأولى .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ج ١٨ ، ومن أحكام القرآن ، لابن العربي ، ج ٢٥ .

(٣) جريدة الأهرام ١٧/١٢/١٩٨٠ .

سابعاً : « وقرن في بيوتكن » :

يقول الله تعالى مخاطباً نساء نبيه الكريم :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾^(١)

جاء في فتوى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الشريف ما نصه :

« وإنه وإن كان هذا الأمر بالاستقرار في البيت خاصاً بنساء الرسول ، إلا أنه في الواقع أمر عام لجميع نساء المسلمين »^(٢).

ويقول أبو بكر الجصاص في كتابه (أحكام القرآن الكريم) :

« وهذا الحكم وإن نزل خاصاً في النبي ﷺ وأزواجه ، فالمعنى عام فيه وفي غيره ، إذ كنا مأمورين باتباعه والافتداء به ، إلا ما خصه الله به دون أمته » .

ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾

« أى : الزَّمنَ بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد - بشرط - فأدائها الصلاة في البيت أفضل » .

فالمقصود : أن يلزمن بيوتهن ما لم تكن ثمة حاجة إلى خروجهن .

ويقول الإمام الألوسى في تفسيره :

« جاء في الحديث الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لنسائه - بعد نزول هذه الآية الكريمة : « أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ » .

فعلم أن المراد بالأمر بالاستقرار الذي يحصل به وقارهن وامتيازهن على سائر النساء بأن يُلازمن البيوت في أغلب أوقاتهم ، ولا يَكُنَّ خَرَاجَات طَوَّافَات في الطريق والأسواق وبيوت الناس . . الخ .

(١) سورة الأحزاب - من الآية ٣٣ .

(٢) مجلة رسالة الإسلام ، السنة الرابعة ، العدد الثالث - يوليو ١٩٥٢ .

«وعليه فالأمر بالاستقرار في البيت لم يكن مطلقاً ، وإلا لما أخرجهن الرسول بعد نزول الآية للحج والعمرة ، ولما ذهب بهن في الغزوات ، ولما رخص لهن لزيارة الوالدين وعيادة المرضى» (١).

ويقول الرسول ﷺ في تحديد مهمة المرأة :

« . . . وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا . . . » .

لذلك فإن خروج المرأة للعمل بلا ضرورة (والضرورة تقدر بقدرها) يُعدّ قضاءً على الحياة الأسرية المستقرة ، التي هي أساس سعادة الزوجين ، وحسن تربية الأولاد ، فكل ميسر لما خُلق له ، فالرجل ميسر لما خُلق له من العمل لكسب نفقات الأسرة ورعايتها وكفالتها ، والمرأة ميسرة لما خُلقت له من كونها سكناً للزوج ، ومصدراً للمودة والرحمة ، وتدير أمور المنزل ، وتربية الأطفال تربية سليمة طبقاً لمبادئ وقيم الدين الحنيف ، ويجب أن تعد لذلك إعداداً علمياً ودينيّاً .

وفي قوله تعالى :

﴿ يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتُنَّ كَاحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ اِنْ اَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَاَقِمْنَ الصَّلٰوةَ وَءَاتِينَ الزَّكٰوةَ وَاَطِعْنَ اللّٰهَ وَرَسُوْلَهُ ۚ اِنَّمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ اَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝۲۱﴾

توجيهٌ إلى نساء النبي ﷺ ، وتوجيهٌ إلى علاقتهن بالناس :

﴿ اِنَّمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ اَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝۲۱﴾

(١) تفسير الألوسي ، ج ٢٢ ص ٩ . (٢) سورة الأحزاب - الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

فما هى وسائل إذهاب الرجس ووسائل التطهر التى يحدثهن الله سبحانه وتعالى عنها
وهن زوجات النبى ﷺ ، وأهل البيت ، وأطهر من عرفت الأرض من النساء ، ومن
عداهن من النساء أحوج إلى هذه الوسائل ؟

هذه الوسائل كما تحددها هذه الآيات البينات :

١- ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾

٢- ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

٣- ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾

٤- ﴿ وَلَا تَبْرَجِ الْجَاهِلِيَّةَ الْأُولَى ﴾
« وقرن في بيوتكن » :

ليس معنى هذا ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقاً ، إنما هى إبقاء لطيفة إلى أن
يكون البيت هو الأصل فى حياتهن .

والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى ، غير
مشوهة ، ولا منحرفة ، ولا ملوثة ، ولا مكدودة فى غير وظيفتها التى هياها الله لها
بالفطرة ، ولكى يهئ الإسلام للبيت جوهر ، ويهئ للأطفال الناشئة فيه رعايتها ،
أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ؛ كى يتاح للأم من الوقت والجهد وهدوء
البال ما تشرف به على الأطفال الصغار .

فالأم المكدودة بالعمل للكسب ، والمرهقة بمقتضيات العمل ، والمقيدة بمواعيده ،
والمستغرقة الطاقة فيه ، لا يمكن أن تهب البيت جوهر وعطره ، ولا يمكن أن تمنح الطفولة
الناطقة فيه حقها ورعايتها .

فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تخلقها امرأة ، وأريج البيت لا يفوح إلا أن تطلقه
زوجة ، وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاه أم ، والمرأة أو الزوجة أو الأم التى تقضى وقتها

وجهدتها وطاقتها الروحية في العمل لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال .

ولقد كانت النساء على عهد رسول الله ﷺ يُخْرَجْنَ للصلاة غير ممنوعات شرعاً من هذا ، وكانت المرأة تخرج للصلاة متلفعة لا يعرفها أحد ، ولا يبرز من مفاتها شيء ، في زمان فيه عفة وفيه تقوى .

ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

« كَانَ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يَشْهَدْنَ الْفَجْرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَرْجِعْنَ مُتَلَفَعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ ، مَا يُعْرِفْنَ مِنَ الْغَلَسِ » .

ومع هذا فقد كرهت عائشة لمن أن يخرجن بعد وفاة رسول الله ﷺ ، ففى الصحيحين أيضاً أنها قالت :

« لَوْ أَذْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَخَذَتْ النِّسَاءُ لِمَنْعَهُنَّ مِنَ الْمَسَاجِدِ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

فماذا أحدث النساء في حياة عائشة رضى الله عنها ؟

وماذا كان يمكن أن يُحْدِثْنَ حتى نرى أن رسول الله ﷺ كان ما نَعْنُهُنَّ من الصلاة ؟

ماذا بالقياس إلى ما نراه في هذه الأيام (١) .

قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ :

فلا حرج على المرأة المسلمة أن تخرج من البيت لزيارة مشروعة ، أو لقضاء حاجة دينية أو معاشية أو علمية ، أو تدبير أى مصلحة من مصالح المجتمع الأساسية .

وقد قال رسول الله ﷺ لزوجته سَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ رضى الله عنها :

« أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ » .

(١) فى ظلال القرآن ، للشهيد الأستاذ سيد قطب .

ولا حرج أن تقابل الرجال لشيء من ذلك ونحوه مما تقتضيه المصلحة ، مادام ذلك يتم في نطاق الآداب الإسلامية ، على أن يُراعى أمران أساسيان :

(أ) ألا يكون في خلوة إطلاقاً ، سواء أكان داخل البيت أو في أى مكان آخر ، إلا أن يكون معها زوجها أو ذو محرم لها .

(ب) أن تكون المرأة ساترة لبدها وزينتها ، وفي حدود ما أباحه الشرع ، رفعاً للحرج ، وتيسيراً للمصلحة .

وقد كانت نساء الصحابة في عهد رسول الله ﷺ يفعلن ذلك ، فالإسلام يميز للمرأة أن تخرج من المنزل طالما تتطلب ظروف حياتها الخروج ، ولكن لا يميز لها أن ترى نفسها سلعة تحملها قدمها وتسير بها هنا وهناك للعرض ، والإغراء والمزايدة ، فالمرأة محرم عليها عرض مفاتها وزينتها على أجنبي عنها ، سواء خارج منزلها أو داخل منزلها ، بدون أن تخرج منه .

توضيح :

وأخيراً علينا أن نوضح أن الإسلام لم يحرم المرأة أهلية العمل خارج بيتها كما كان في بعض الشرائع قبل الإسلام . كما أنه في الوقت نفسه لم يحرض المرأة على هجر البيت ، ولم يزين لها مزاخرة الرجل وترك شؤون الأسرة ، كما هو شأن اتجاه حضارة العصر الحديث ، وإنما اتخذ الإسلام بين هذين الاتجاهين طريقاً وسطاً .

فالإسلام لا يحول دون أن تضطلع المرأة بأية وظيفة ، أو أن تزاوِل أى عمل خارج بيتها طالما كانت تحافظ على آداب الإسلام . كأن تنأى عن الخلوة برجل ، وألاً تكون متبرجة ، ولا سيما إذا كانت حالتها المادية تضطرها إلى العمل ، فالمرأة تعمل إذا كانت مضطرة ، فإذا لم تكن مضطرة ففي أسرتها ما يشغل وقتها في عمل نافع مفيد للمجتمع . فواجبها الأول أن تكون زوجة ، وأمّاً ، وربة بيت . فرعاية الأسرة توجب على المرأة أن تتفرغ لها ، واختلاط المرأة بالأجانب عنها محرم في الإسلام ، وبخاصة الخلوة مع الأجنبي ، وكشف المرأة عن غير ما سمح الشرع بكشفه - وهو الوجه واليدان

- محرم في الإسلام ، وسفر المرأة وحدها خارج بلدتها بدون أن يكون معها محرم لا يبيحه الإسلام .

والحديث الشريف :

« مَا خَلَا رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ إِلَّا كَانَ الشَّيْطَانُ ثَالِثَهُمَا » ^(١)

ثامناً : هل للمرأة حق الاشتغال بالسياسة ؟ :

رئاسة الدولة - الوزارة - المجالس النيابية :

الولاية نوعان : ولاية عامة ، وولاية خاصة . فالولاية العامة هي السلطة الملزمة في شأن من شئون المجتمع ، وهي القيام بعمل من أعمال إحدى السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية .

أما الولاية الخاصة : فهي السلطة التي يملك فيها صاحبها التصرف في شأن من الشئون الخاصة لغيره ، كالوصاية على الصغار ، والولاية على المال ، والنظارة على الأوقاف .

وقد ساوت الشريعة الإسلامية بين المرأة والرجل فيما يتعلق بالولاية الخاصة ، إضافة إلى أن المرأة تملك حرية التصرف في شئونها الخاصة ، بالبيع ، والهبة ، والرهن ، إلخ . أما بالنسبة للولاية العامة وحق المرأة في الاشتغال بالسياسة فهناك رأيان :

✽ رأى يقول : إنه ليس من حق المرأة الاشتغال بالسياسة .

(أ) عضوية المجالس النيابية :

فقد قصرت الشريعة الإسلامية الولاية العامة على الرجال إذا توفرت فيهم شروط معينة .

وترجع التفرقة بين الرجل والمرأة إلى ما بينهما من الفروق الطبيعية ، فصفة الأنوثة من

(١) انظر : المرأة بين الفقه والقانون ، للدكتور مصطفى السباعي ، والإسلام والمرأة المعاصرة ، للبهى الخولى ، والفتاوى ، للإمام عبدالحليم محمود ، ج ٢ .

شأنها تجعل المرأة مطبوعة على غرائز تناسب المهمة التي خلقت من أجلها ، وهى مهمة الأمومة ، وحضانة النشء وتربيته ، وهذه قد جعلتها ذات تأثير خاص بدواعى العاطفة .

كما أن المرأة تعرض لما عوارض طبيعية تتكرر عليها فى الأشهر والأعوام ، من شأنها أن تضعف قوتها المعنوية ، وتوهن من عزيمتها فى تكوين الرأى والتمسك به ، والقدرة على الكفاح والمقاومة . كما أن شدة الانفعال والميل مع العاطفة من خصائص المرأة فى جميع أطوارها وعصورها . وعلى أساس هذا الفارق الطبيعى بين الرجل والمرأة ميزت الشريعة بينهما فى كثير من الأحكام ، إذ جعلت الشريعة حق طلاق المرأة للرجل دونها . ومنعتها من السفر بدون محرم أو زوج أو رفقة مأمونة ، وهى أحكام لا تتعلق بالشئون العامة للأمم - لذلك فإن التفرقة بينهما فى أمور الولاية العامة من باب أولى أحق وأوجب ، والله تعالى يقول :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١)

وإذا كانت القاعدة العامة فى الشريعة الإسلامية هى المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات ، اللهم إلا ما استثنى بنص صريح .

وفى قوله تعالى ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾^(٢)

يبيّن القرآن الكريم حدود هذه الدرجة فى قوله تعالى :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(٣)

(١) سورة النساء - من الآية ٣٤ .

(٢) سورة البقرة - من الآية ٢٢٨ .

(٣) سبق تحريجها .

فهذه الدرجة هى درجة القوامة والرياسة على شئونها المشتركة ، أى شئون الأسرة . فالرجل هو المكلف الإنفاق على الزوجة وتربية الأولاد ، طبقاً للشريعة .

أما المجالس النيابية فهى تقوم مقام القوام لجميع الدولة ؛ لأنها هى التى تدير دفة سياسة الدولة ، والله جعل مقام «القوام» للرجال لا للنساء .

وهناك من الوظائف والأعمال مالا يعد من الولايات العامة التى تتطلب شيئاً من سلطان الحكم ، كالتدريس للبنات ، والقيام بعمل الطيبة والمرضة لعلاج المرضى من النساء ، وغير ذلك من الأعمال التى لا تتعارض مع طبيعة المرأة .

(ب) رياسة الدولة - الوزارة :

أما القيام بغير ذلك من الوظائف - وخاصة ما كان منها متصلاً بسلطة الحكم - كرياسة الدولة ، والوزارة ، فإن الشريعة لا تبيحه للمرأة ، استناداً إلى قول الرسول ﷺ : « لَنْ يُفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ » ^(١) .

وقد قال الرسول ﷺ هذا الحديث حين أبلغ أن الفرس ولّوا للرياسة عليهم إحدى بنات كسرى بعد موته .

« وَيَعْدُ هذا نهياً عن مجارة الفرس فى إسناد شىء من الأمور العامة إلى المرأة . ولأن فى أمور الولاية العامة من طلب رأى وثبات العزم ما تضعف عنه النساء ، ومن الظهور فى مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور » ^(٢) .

ونشرت بمجلة رسالة الإسلام فتوى للجنة الفتوى بالجامع الأزهر خلاصتها : أنه ليس للمرأة حق الاشتغال بالسياسة أو عضوية المجالس النيابية ^(٣) .

وجهة نظر أخرى فى اشتغال المرأة بالسياسة :

مضمونها أن الإسلام يقف من اشتغال المرأة بالسياسة موقف النفور الشديد ، لا

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، وابن حنبل فى مسنده ، والنسائى فى سننه ، والترمذى فى جامعه .

(٢) الأحكام السلطانية للمأوردى ص ٢٥ .

(٣) مجلة رسالة الإسلام ، عدد يوليو ، ١٩٥٢ - القاهرة - ومبادئ نظام الحكم فى الإسلام للدكتور عبد الحميد متولى .

لعدم أهلية المرأة بل للأضرار الاجتماعية التي تنشأ عنه ، وللمخالفات الصريحة لآداب الإسلام وأخلاقه ، وللجناية البالغة على سلامة الأسرة وتماسكها .

وإذا كان الإسلام قد ساوى بين الرجل والمرأة في الأهلية والحقوق المالية فإنه يرى من الخير لها ولأسرتها وللمجتمع أن تتفرغ لشئون أسرتها وتهتم بها ؛ ولذلك أسقط عنها تكاليف المعيشة ، فألزم زوجها بالإنفاق عليها ، كما ألزم أباه بالإنفاق عليها حتى تتزوج .

وعليه فإن الإسلام لا يحرم المرأة من حقوقها السياسية ، باستثناء حق رئاسة الدولة ، عملاً بالحديث الشريف السابق الذي قاله الرسول حين أبلغ أن الفرس ولّوا للرئاسة عليهم إحدى بنات كسرى بعد موته ، فلمقام كان خاصاً برئاسة الدولة .

والخلاصة أن المرأة لها حق الاشتغال بالسياسة ، وعضوية المجالس النيابية ، غير أن المجتمع لم يتهيأ بعد لأن تزاوّل المرأة فيه تلك الحقوق مزاولة فعلية لسببين .

(أ) أن الأخلاق لم ترتفع بعد إلى ذلك المستوى الذي ينشده الإسلام ، بحيث يغدو مستطاعاً أن تزاوّل المرأة حقوقها السياسية ، مع المحافظة على تعاليم الإسلام وآدابه .

(ب) أن الإسلام لا يبيح الاختلاط بين الرجل والمرأة ، اللهم إلا في أضيق الحدود ، في مواطن العبادة ، وأماكن العلم ، وميادين الجهاد^(١) .

ويقول فضيلة المرحوم الدكتور عبد الحلّيم محمود شيخ الأزهر الأسبق : يُباح للمرأة إبداء الرأي في الأمور العامة على وجه يتفق مع آداب الإسلام ، أما أن تتولّى المرأة مناصب الولاية العامة فهذا أمر قد عارضته النصوص الإسلامية ، وإذا كان بعض الناس قد تأوّلوا هذه النصوص فإن جمهرة العلماء يؤيدون إعمال ظاهرها ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « لَنْ يُفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ »^(٢) .

المرأة والقضاء :

وفي منصب القضاء يشترط الذكور ؛ لأن أهم شروط القاضى : أن يكون فقيهاً ،

(١) المرأة بين الفقه والقانون ، للدكتور مصطفى السباعي - والإسلام والمرأة المعاصرة ، للبهى الخولى .

(٢) في رحاب الكون ، مع الرسل والأنبياء ، للدكتور عبد الحلّيم محمود .

مجتهداً ، عادلاً ، قادراً على تحقيق العدل بين الناس ، والحكم بينهم ، وسياستهم نحو تحقيق المجتمع الأفضل .

وحتى لو اجتمعت هذه الشروط في امرأة فلا يجوز أن يُسَمَّحَ لها بتولى القضاء بين المسلمين ، لا لسبب سوى التحرز والاحتياط في تحقيق العدالة بأسلم ما يكون من السبل ، وأشد ما يكون من القدرة .

كما أن المرأة يطرأ عليها ما يشغلها عن القيام بأعباء الحكم والقضاء ويؤثر على مزاجها وأعصابها من حَمَلٍ ، وولادة ، وحيض ، وأعباء بيت . لذلك يكون الرجل حقيقة أقدر على تولى منصب القضاء وإدارة دفة الحكم من المرأة .

وفي مقام الشهادة اعتُبرَ الرجل مقابل امرأتين ، وقد علل على ذلك في الآية الكريمة :

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ
إِحْدَاهُمَا الْآخَرَىٰ﴾^(١)

وهذا نص صريح الدلالة بعدم مساواة الرجل والمرأة في الشهادة ، ومن ثم فقد حرم عليها توليها منصب القضاء .

رأى الإمام أبى حنيفة :

لا يميز مذهب من مذاهب المسلمين تولى المرأة القضاء ، ويخطئ كثير من الناس الحقيقة ، أو لا يفهمون الأمر على وجهه الصحيح ، حينما يقولون : إن مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه يميز تولى المرأة القضاء ، ذلك أن أبى حنيفة مثله كمثل الإمام مالك ، والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل ، لا يميز تولى المرأة القضاء .

(١) سورة البقرة - من الآية ٢٨٢ .

وتوضيحاً للأمر نقول : إن مذهب الإمام أبى حنيفة يرى : أنَّ المرأة لاتصلح للقضاء ، وليست أهلاً له ولا يجوز أن يوليها الولي منصباً من مناصبه ، ولكن لو فرضنا أن الولي أقدم على المحرم ولم يبال بالممنوع شرعاً فولأها القضاء أثماً بذلك ، ومخالفاً للشرع ، فهل في هذه الحالة ينفذ حكمها وقضاؤها أو لا ينفذ ؟

يرى الإمام أبو حنيفة أن حكمها يُنفذ ، فيما عدا الجنايات ، أما المذاهب الأخرى فإنها ترى أن حكمها لا ينفذ في الجنايات ولا في غيرها .

ليس الخلاف إذن بين المذاهب في جواز تولية المرأة القضاء ، فذلك ممنوع بالإجماع ، ومن يوليها القضاء آثم بالإجماع ، ومخالف للشرع بالإجماع .

والخلاف ينحصر في أنه إذا وقعت جريمة أثناء توليتها القضاء فهل ينفذ حكمها أو لا ينفذ^(١).

تاسعاً: عمل الزوجة في بيتها :

نموذج من بيت النبوة :

كانت حياة فاطمة الزهراء في بيت زوجها على بن أبى طالب أقرب إلى أن توصف بالخشونة والفقر . . . خلاف حياة أخواتها اللاتي أُتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادى ، فقد تزوجت زينب من أبى العاص ، وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية وأم كلثوم أولاً من ابني أبى لهب ، ذى المال الوفير ، ثم تزوجتا واحدة بعد الأخرى من عثمان بن عفان الواسع الغنى ، أما على بن أبى طالب فلم يكن ذا حظ من مال مكتسب أو موروث ، حيث كان أول مَنْ آمن بالرسول صبيّاً ، إذ كان عمره عشر سنوات^(٢).

فصرفته صُحبة الرسول وهو يواجه المشركين عن حرفة التجارة التى هى سبيل الثراء

(١) الفتاوى للإمام الدكتور عبدالحليم عمود .

(٢) السيرة لابن إسحاق ، ج ١ ص ٦٢ .

بمكة ، وقد دخلت الزهراء بيت زوجها بخميأة ، ووسادة حشوها ليف ، ووعاءين وسقاءين ، وشيء من العطر والطيب .

ونظراً لكثرة أعمال البيت فكان عليٌ يساعد الزهراء في بعض أعمال البيت ، حيث لم يستطع أن يستأجر لها خادمة تعينها .

و ذات يوم عاد النبي ﷺ من إحدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا ، فقام عليٌ كرم الله وجهه وصحب زوجته الزهراء إلى بيت أبيها تلتمس واحدة من السبايا تساعد في خدمة البيت . فأجاب ﷺ : « لا والله لا أعطيكم وأدعُ أهل الصفة تتلوى بطونهم ولا أجِدُ ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن » . وحكم الرسول ﷺ أن يكون لعل عمل الخارج ، ولفاطمة عمل البيت . ثم أضاف ﷺ في رفق وحنان وهو يقدر حالها :

« أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَنِي ؟ أَجَابَا مَعًا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : كَلِمَاتٍ عَلَّمْنِيهِنَّ جَبْرِيلُ :

تُسَبِّحَانَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا ، وَتُحَمِّدَانِ عَشْرًا ، وَتُكَبِّرَانِ عَشْرًا .
وَإِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا تُسَبِّحَانِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَتُحَمِّدَانِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَتُكَبِّرَانِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ » .

ولقد سُمِعَ الإمام عليٌ بعد أكثر من ثلث قرْنٍ يذكر كلمات الرسول ويقول : « فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ عَلَّمْنِيهِنَّ » .

سأله رجل من أصحابه : ولا ليلة صِفِّينَ ؟ فأجاب مؤكداً : ولا ليلة صِفِّينَ .
وهكذا نصحتها الرسول ﷺ من الإكثار من الذِّكْرِ ، والتسبيح ، والتهليل للعبادة ،
فذلك خير لهما ^(١) .

كما روت كتب السنَّة أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ كان في خدمة أهله - أى يساعدهم في أعمال البيت .

(١) القصة رواها البخاري .

خدمة المرأة لزوجها :

اختلفت الآراء في موضوع خدمة المرأة لزوجها ، ويبدو الفرق الإسلامى فى أتم صورة وأروعها ، فعلى الزوج أن يضطلع بعبء تقديم الطعام والكسوة لزوجته وأولاده ، وعلى الزوجة أن تضطلع بعبء رعاية الزوج والأولاد بالعمل داخل البيت .

وفى رأى بعض الفقهاء أنه : ليس على الزوجة فى هذه الشركة أكثر من واجب المعاشرة الزوجية المنصفة .

- ويرى الإمام الشافعى رضى الله عنه : « أن على الزوج نفقة خادم لزوجته إن كانت تُخْدَمُ فى بيت أبيها » .

- ويرى الإمام مالك رضى الله عنه : أن على الزوجة خدمة الزوج ، وليس عليها خدمة أهله أو ضيوفه . فإن فاطمة الزهراء رضى الله عنها كانت تقوم بخدمة على كرم الله وجهه ، وأنها لما اشتكت إلى أبيها صلوات الله وسلامه عليه ما تلقى من مشقة الخدمة لم تقل لزوجها لا خدمة عليها .

والحقيقة أن موضوع خدمة المرأة لزوجها يرجع فيه إلى قوله تعالى :

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١)

وإلى العُرفِ ، فإن كانت المرأة تُخْدَمُ فى بيت أبيها واشترطت أن تُخْدَمُ فى بيت زوجها ، فلا يحل للزوج أن يجبرها على خدمته .

فإذا كان هناك حب ووافق بين الزوجين فستفانى الزوجة فى خدمة الزوج ، كما أن الإسلام مع ذلك يوجهها فى رفق إلى أن تتقدم إلى مهمة القيام بتدبير المنزل وتصريف شئونه طبقاً للمصلحة المشتركة . ولا يحل للزوج أن يكلف زوجته فوق استطاعتها ، فقد تكون التكاليف فى ذاتها مشروعة فعلاً ، ولكنه لظروف الزوجة تصبح شاقة . وكما قيل : إذا أردت أن تُطاع فأُمر بها يُسْتَطاع .

(١) سورة النساء - من الآية ١٩ .

وقد أوصى الرسول ﷺ بالآ كلف الإنسان خادمه لنفسه ما لا يطيق ، فإن كلفه ما يشق عليه وجب عليه أن يساعده . فإذا كان هذا بالنسبة للخادم فما بالك بالزوجة التى هى شريكة حياته وأم أولاده ؟!

ويقول صلوات الله عليه وسلامه :

« خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » (١).

قال القرطبي :

قال علماؤنا : على المرأة أن تفرش الفراش ، وتطبخ القدر ، وتَقُمَّ الدَّارَ - أى : تنظفها - بحسب حالها وعادة مثلها .

وعلى الزوجة أيضاً أن تساعد زوجها فيما خَفَّ من الأعمال ، فقد روى عن أسماء رضى الله عنها قالت : « تزوجتُ الزُّبَيْرَ وماله في الأرضِ مِنْ مَالٍ ، ولا تَمْلُوكُ ، ولا شَيْءٍ غَيْرَ فَرَسِهِ وَنَاضِحِهِ (أى : البعير الذى يستقى عليه) فكنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَكْفِيهِ مَتُونَتَهُ وَأَسْوِسُهُ ، وَأُدَوِّرُ النَّوَى لِنَاضِحِهِ وَأَعْلِفُهُ ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ ، وَأُخْرِزُ غَرْبَهُ ، وَأُعِجِّنُ ، وَكنْتُ أُنْقِلُ النَّوَى على رَأْسِي مِنْ ثَلَاثِي فَرَسِيحٍ ، حتى أَرْسَلَ إِلَى أَبُو بَكْرٍ بِجَارِيَةٍ فَكَفَّنِي سِيَّاسَةَ الْفَرَسِ ، فَكَانَتْ أَعْتَقَنِي » (٢).

تعاون الرجل مع المرأة في أعمال البيت :

وعلى الرجل أن يتعاون مع زوجته في مهام الأسرة ، لما روته عائشة رضى الله عنها : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ، فَإِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ » . وهذا قول الإمام مالك .

وفي أخلاق النبي ﷺ أنه كَانَ يُعَاوَنُ أَزْوَاجَهُ فِي أَعْمَالِ الْمَنْزِلِ ، يَخْصِفُ النِّعْلَ ، وَيَقُمُّ الْبَيْتَ ، وَيَخِيطُ الثَّوبَ ، وَيَحْلُبُ الشَّاةَ ، وَيُعَاوَنُ زَوْجَاتِهِ ، وَيَعْمَلُ مَعَهُنَّ .

(١) رواه الترمذى .

(٢) متفق عليه (إحياء علوم الدين ج ٢) .

وكان إلى جانب ذلك كله يقدر كل شيء حق تقديره ، ولم تُسمع منه كلمة ذم لرأى أو عمل .

وعن العرياض بن سارية ، رضى الله عنه قال : سمعنا رسول الله ﷺ يقول :
« إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَقَى امْرَأَتَهُ مِنَ الْمَاءِ أُجِرَ » .
قَالَ : فَأَتَيْتُهَا فَسَقَيْتُهَا ^(١) .

فهل بعد ذلك نكلف المرأة الخروج والعمل خارج البيت ؟

ومن طريف ما يروى في شأن عمل البيت أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه كان يقسم عمل البيت بين أمه وزوجته ، لكل ما يناسبها ، فيقول لأمه « فاطمة بنت أسد » : « اكفى فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء والذهب في الحاجة ، وتكفيك فاطمة الداخل : الطحين والعجين . تقسيم جميل يجعل العمل الذى يقتضى الاتصال بخارج البيت لكبيرات السن ، والعمل داخل البيت للشابات الصغيرات ، وهذا أدعى للعفاف ، والمحافظة على كرامة المرأة .

عاشرا : أنتم أذرى بشئون دنياكم :

الحقيقة أن البعض يسيئون فهم قول الرسول ﷺ .

« أَنْتُمْ أَذْرَى بِشُؤْنِ دُنْيَاكُمْ » . وفى رواية : « مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَلِئِىَّ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ » ^(٢) . ويعتقدون أنه تعميم يمكن الأخذ به فى جميع الأمور . . . وللأسف كثيرا ما يرددون هذا الحديث عندما تُثار قضية خروج المرأة للعمل ، وموضوع زى المرأة المسلمة .

لقد جاء القرآن الكريم موضعا لكل شئون حياتنا الدينية والدنيوية ، يقول عز وجل :

(١) رواه أحمد (الفتح الربانى ، ج ١٦)

(٢) رواه الإمام أحمد (نقلا عن كتاب الخلافة العظمى للسيد محمد رشيد رضا) .

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)

كما أن رسول الله ﷺ لم يترك أمراً من أمور الدين والدنيا إلا علّمه لأصحابه ، حتى إن الصحابة كانوا يقولون :

« لَقَدْ عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ ، حَتَّى كَيْفِيَّةَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ » .

وبالرغم من ذلك فقد قال ﷺ لأصحابه : « أَنْتُمْ أَذْرَى بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ » .

فكيف تستطيع المرأة المسلمة أن توائم بين الأمور التي تستطيع أن تتبع فيها عقلها ودرائتها الدنيوية دون أن يعتبر هذا تجاوزاً أو خروجاً على الحدود التي رسمها الله تعالى ، ورسوله عليه الصلاة والسلام ؟

بالرجوع إلى الواقعة التي قيل فيها هذا الحديث يتضح أن هناك أموراً مقصودة دون غيرها بهذا الحديث ، لقد قال رسول الله ﷺ هذا الحديث حينما مرَّ على نَفَرٍ يقومون بِتَلْقِيحِ النَّخْلِ . . فقال لهم الرسول : « لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ » .

واستمع القوم إلى قول الرسول ولم يَقُومُوا بتلقيح النخل كما اعتادوا ، فلم يُثْمِرِ النخل ، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليقصوا عليه أمر نخلهم ، فقال لهم : « أَنْتُمْ أَذْرَى بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ » .

وإن الذين يسيئون فهم هذا النص يريدون أن يتخذوا من هذا الحديث مبرراً لكي يشعروا لأنفسهم ، بحجة أنهم أبصر بشئون دنياهم ، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ .

لكنَّ هناك فرقاً بين الأمر التجريبي المعمل الذي يكون الفيصل فيه للتجربة التي لا تخضع للهوى الشخصي ولا تختلف فيها الآراء ، وبين الأمر النظري الذي تختلف فيه الأهواء والمذاهب . فنحن أبصر بشئون دنيانا فيما يختص بالأمور المادية والعلمية الناتجة عن التجارب العملية الصماء التي لا تحتل التأويل أو الاختلاف ، وتلك هي الأمور

(١) سورة النحل - من الآية ٨٩ .

التي لا يستمع فيها لرأى ولا مشورة . فالتجارب العلمية ثابتة في كل الأحوال ، وفي كل الدول مهما اختلفت معتقداتها ، لدرجة أن بعض الدول تحاول سرقة نتائج هذه الأبحاث العلمية لاستخدامها والانتفاع بها . مثل هذه الأمور والنواحي العلمية لا تحتمل التأويل ولا الاختلاف .

أما بالنسبة للأمور النظرية والتي يدخل فيها الهوى الشخصي وتحتمل تعدد الآراء ، فإن التشريع الإسلامى قد جاء ليحمينا من تلك الأهواء التي تدعو إلى الاختلاف والمصلحة الشخصية ، وأوضح لنا كتاب الله الكريم وسنة رسوله ﷺ كل شىء فيما يختص بهذا التشريع الذى يختلف فيه الأهواء حتى لا نضل .

فعلينا الالتزام بما جاء به التشريع الإلهى وألا نسىء فهم واستخدام الحديث الشريف ونتخذة مبرراً لكى نشرع لأنفسنا . علينا أن نلتزم بشريعة الله ولا نتبع هوانا ونشرع لأنفسنا ، لأن هذا افتراء على الله ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيًا هَدَىٰ مِّنَ اللَّهِ ۖ ﴾^(١)

ويقول عز وجل :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ ﴾^(٢)

علينا أن نتبع شريعة الله ولا نتبع أهواء قوم ضلُّوا وأضلُّوا ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ ﴾^(٣)

فإن الأصل الوحيد الذى يقوم عليه التشريع للناس هو أمر الله تعالى وإذنه ، باعتبار أنه هو مصدر السلطان الأول والأخير ، فكل مالم يقيم ابتداء على هذا الأصل فهو باطل بطلاناً أصلياً ، غير قابل للتصحيح المستأنف ، وكل وضع لا يستمد وجوده

(١) سورة القصص - من الآية ٥٠ .

(٢) سورة الأنعام - من الآية ١٤٤ .

(٣) سورة المائدة - من الآية ٧٧ .

من ذلك الأصل الوحيد الصحيح باطل بطلاناً أصلياً بكل تصوراته وقيمه وموازينه، وعُرفه وتقاليده ، وشرائعه وقوانينه . وعلينا أن نفرق بين أمر لا يتغير وبين ظواهر حياة تتغير .

إن للمجتمع الإسلامي شخصية خاصة ، وشخصية إنسانية عامة يشاركه فيها سائر المجتمعات الإنسانية ، وهو من هذا الجانب وبذلك الشخصية الإنسانية العامة له وعليه أن يفكر فيما يصلح شأنه ويجعله ذا مركز في الحياة ، وقد ترك الله في شرعه هذا الجانب من الحياة للتفكير البشري ولم يقيد فيه بتشريع معين ، ولا أسلوب خاص ، بل دعاه إلى التفكير والنظر فيما يصلح شأنه ، حسب الوسائل العصرية المتبدلة المتغيرة ، وهذا هو المقصود بقوله عليه الصلاة والسلام : « أَنْتُمْ أَذْرَى بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ » ، وليس لنا أن نقول عن شيء يقع في هذه الدائرة إنه لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من خلفائه فلا نفعله ، ذلك أنهم لم يفعلوه لأن زمنهم لم يطلبه ، ولم يخلق لديهم بواعث عمله أو التفكير فيه .

أما الشخصية الخاصة للمجتمع الإسلامي فهي الشخصية التي تحدد دائرتها العقيدة والعبادة وأصول المحرمات التي حظرها الدين حفظاً للعقائد والأخلاق ، وحفظاً للعقول والأبدان . وهذه الدائرة لا تتلقى أحكامها إلا من الدين الذي أكمله الله لعباده من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا يصح التصرف البشري فيها لا بتغيير في كيفيةها ، ولا بزيادة عليها ، ولا بنقص منها ، ومن هنا كان الابتداع في شيء منها خروجاً عن حدود الله :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(١)

وفي هذا يقول الرسول الكريم ، ﷺ « مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » .
أي : مردود على صاحبه غير مقبول . وصح أن رسول الله ﷺ خطاً خطاً بيده ثم قال :

(١) سورة البقرة - من الآية ٢٢٩ .

«هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا» . ثم خط خطوطاً عن يمين هذا الخط وعن شماله ثم قال :
«هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ فِيهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» . ثم قرأ هذه الآية الكريمة :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١)

فعلينا أن نلتزم بأصول ديننا - قرآنًا وسنةً - حتى لا يطغى زيف الحضارة المادية على
ديننا ، وحتى لا يطغى الانحراف على استقامتنا^(٢) .

(١) سورة الأنعام - الآية ١٥٣ .

(٢) الفتاوى - للشيخ محمود شلتوت .